

الْبَحْثُ الْعِلْمِيُّ وَدَوْرُهُ فِي تَقَدُّمِ الْأُمَّمِ ١٥/١٢/١٤٤٥ هـ

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ أَشْرَفَ الْمَطَالِبِ، وَأَعْلَى الْمَوَاهِبِ طَلَبُ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وَالْعِنَايَةُ بِتَحْصِيلِهِ، وَمَنْ وُفِّقَ لَطَلَبِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِهِ فَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنِ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

إِنَّ حَاجَةَ الْمُسْلِمِ إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ وَالْعِنَايَةَ بِهِ مِنْ أَشَدِّ الْحَاجَاتِ وَأَعْظَمَهَا؛ لِأَنَّ سَعَادَتَهُ وَفَلَاحَهُ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ مُتَوَقِّفٌ عَلَى الْعِلْمِ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا وَسِيلَةَ لِتَحْصِيلِ تَمَامِ الْمِنَّةِ إِلَّا بِالْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ، أَخْرَجَ أَهْلُ السُّنَنِ عَدَا النَّسَائِيَّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ: إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَدِيثٍ بَلَّغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا جِئْتُ لِحَاجَةٍ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لَطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيَتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يَكْفِي أَهْلَ الْعِلْمِ شَرَفًا وَفَضِيلَةً وَنُبْلًا أَنْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَرَنَ شَهَادَتَهُمْ بِشَهَادَتِهِ سُبْحَانَهُ فِي أَعْظَمِ مَشْهُودٍ بِهِ، وَهُوَ تَوْحِيدُهُ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وَنَوَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِفَضْلِهِمْ فِي آيَاتٍ كَثِيرَاتٍ، وَمَيَّزَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعِبَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ

وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، وَقَالَ
 ﷺ: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ الْحَصِيفَ الْعَاقِلَ إِذَا اسْتَشَعَرَ مَكَانَةَ الْعِلْمِ وَمَنْزِلَتَهُ وَفَضِيلَتَهُ، جَعَلَ لِنَفْسِهِ حِطًّا وَنَصِيبًا مِنْهُ،
 فَلَا يَفُوتُ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِهِ إِلَّا وَتَزَوَّدُ فِيهِ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ وَإِنْ قَلَّ؛ لِئَلَّا يَخْسَرَ يَوْمَهُ بِضَيَاعِهِ، فَالْعِلْمُ نُورٌ
 لِصَاحِبِهِ فِي الظُّلُمَاتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
 وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ أَهَمِّ مَا يَكُونُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ يَتَحَلَّى الْمُسْلِمُ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَاتِ، وَالْآدَابِ
 الْكَامِلَاتِ، الَّتِي هِيَ عُنْوَانُ لِفَلَاحِ صَاحِبِهَا، فَلِلْآدَابِ مَكَانَتُهُ الْعَلِيَّةُ، وَمَنْزِلَتُهُ الرَّفِيعَةُ، وَمَنْ قَلَّ أَدْبُهُ
 وَضَعْفَ نَصِيبِهِ مِنَ الْخُلُقِ لَا يُؤْتَى مِنَ الْعِلْمِ نَصِيبًا، بَيْنَمَا مَنْ رَاضَتْ نَفْسُهُ عَلَى الْآدَابِ الْفَاضِلَاتِ
 وَالْأَخْلَاقِ الطَّيِّبَاتِ كَانَتْ وَسِيلَةً لَهُ وَسَبَبًا عَظِيمًا لِلتَّوْفِيقِ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَنَيْلِهِ، فَمَا حُصِّلَتْ
 الْمَطَالِبُ الْعَلِيَّةُ بِمِثْلِهِ، وَمَا حُرِّمَ الْمُسْلِمُ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْفَضَائِلِ بِمِثْلِ إِضَاعَتِهِ، فَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُجَاهِدَ
 نَفْسَهُ عَلَى التَّحَلِّيِ بِالْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِ، وَآدَابِهِ الْعَظِيمَةِ، أَدْبًا مَعَ الْعِلْمِ نَفْسِهِ، وَأَدْبًا مَعَ أَهْلِهِ وَحَمَلَتِهِ، وَأَدْبًا
 مَعَ الْكُتُبِ الْمُبَارَكَاتِ النَّافِعَاتِ الَّتِي سَطَّرَتْ فِيهَا مَسَائِلُ الْعِلْمِ وَدَلَائِلُهُ.

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُفِّقَ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ، وَالسَّعْيِ فِي نَيْلِهِ، وَتَمَرَّنَتْ نَفْسُهُ عَلَى ذَلِكَ وَجَدَ لَهُ حَلَاوَةً
 لَا تُضَاهَى، وَلَذَّةً لَا نَظِيرَ لَهَا، وَإِنْ كَانَ فِي بَدَايَاتِهِ قَدْ يَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَشَقَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّدْ، فَإِذَا
 تَمَرَّنَتْ النَّفْسُ وَجَدَتْ لِذَلِكَ لَذَّةً عَظِيمَةً، وَطَعْمًا وَهَنَاءَةً؛ وَلِهَذَا عَلَى الْمُسْلِمِ فِي سُلُوكِهِ لِطَلَبِ الْعِلْمِ
 أَنْ يَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ، وَمَنْ لَا صَبْرَ عِنْدَهُ لَا يَنَالُ عِلْمًا، بَلْ لَا يَنَالُ فَضِيلَةً؛ لِأَنَّ الصَّبْرَ تُنَالُ بِهِ الْأَعْمَالُ
 الصَّالِحَاتُ، وَيَكْفَى بِهِ الْمَرْءُ عَنِ الْمَنْهِيَّاتِ، وَيُفِيدُهُ فِي كُلِّ الْمَقَامَاتِ؛ لِأَنَّهُ خُلِقَ عَظِيمٌ يُلَازِمُ الْمُسْلِمَ

الصَّادِقِ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، وَجَمِيعِ شُؤْنِهِ.

عِبَادَ اللَّهِ: مَنْ ضَعُفَتْ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ هِمَّتُهُ فَعَلَيْهِ بِالنَّظَرِ فِي سِيرِ السَّلَفِ، وَمَا لاقُوهُ مِنْ مَشَقَّةٍ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ»: فَالْمَكَارِمُ مَنْوُطَةٌ بِالْمَكَارِهِ، وَالسَّعَادَةُ لَا يُعْبَرُ إِلَيْهَا إِلَّا عَلَى جِسْرِ الْمَشَقَّةِ، فَلَا تُقَطَعُ مَسَافَتُهَا إِلَّا فِي سَفِينَةِ الْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ. قَالَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ: لَا يُنَالُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ، وَقَدْ قِيلَ: مَنْ طَلَبَ الرَّاحَةَ تَرَكَ الرَّاحَةَ.

وَلَوْ لَا جَهْلُ الْأَكْثَرِينَ بِحَلَاوَةِ هَذِهِ اللَّذَّةِ، وَعِظَمِ قَدْرِهَا لِتَجَالُدُوا عَلَيْهَا بِالسُّيُوفِ، وَلَكِنْ حُفَّتْ بِحِجَابٍ مِنَ الْمَكَارِهِ، وَحُجِبُوا عَنْهَا بِحِجَابٍ مِنَ الْجَهْلِ؛ لِيَخْتَصَّ اللَّهُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ لِلْعِلْمِ فَضَائِلَ كَثِيرَةً، مِنْهَا:

الْأَوَّلُ: أَوَّلُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ تَحُثُّ عَلَى الْعِلْمِ. وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. قَالَ الْعَلَامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أَيُّ: كَثِيرُ الصِّفَاتِ وَاسِعُهَا، كَثِيرُ الْكَرَمِ وَالْإِحْسَانِ، وَاسِعُ الْجُودِ، الَّذِي مِنْ كَرَمِهِ أَنْ عَلَّمَ بِالْعِلْمِ، وَ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَخْرَجَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ، وَيَسَّرَ لَهُ أَسْبَابَ الْعِلْمِ، فَعَلَّمَهُ الْقُرْآنَ، وَعَلَّمَهُ الْحِكْمَةَ، وَعَلَّمَهُ بِالْقَلَمِ، الَّذِي بِهِ تُحْفَظُ الْعُلُومُ، وَتُضْبَطُ الْحُقُوقُ، وَتَكُونُ رُسُلًا لِلنَّاسِ تَنْوِبُ مَنْابَ خِطَابِهِمْ.

الثَّانِي: لَمْ يَطْلُبِ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نَبِيِّهِ ﷺ طَلَبَ الْإِسْتِزَادَةِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنَ الْعِلْمِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ»: كَفَى بِهَذَا شَرَفًا لِلْعِلْمِ أَنْ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَسْأَلَهُ الْمَزِيدَ مِنْهُ. اهـ

الثَّالِثُ: كَلِيمُ الرَّحْمَنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرْحَلُ لِتَعَلُّمِ ثَلَاثِ مَسَائِلَ، مُتَدَبِّبًا بِآدَابِ طَالِبِ الْعِلْمِ مِنْ تَوَاضُعٍ، وَحُسْنِ سُؤَالٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا فِي سُورَةِ الْكَهْفِ. وَرَحَلَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، أَخْرَجَ الدَّارِمِيُّ فِي «سُنَنِهِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحَلَ إِلَى فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ بِمِصْرَ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَمُدُّ لِنَاقَةٍ لَهُ، فَقَالَ: مَرْحَبًا، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ آتِكَ زَائِرًا، وَلَكِنْ سَمِعْتُ أَنَا وَأَنْتَ حَدِيثًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ مِنْهُ عِلْمٌ. قَالَ: كَذَا وَكَذَا.

الرَّابِعُ: الْعِلْمُ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يَرْفَعُهُ الْمُلْكُ وَلَا الْمَالُ وَلَا غَيْرُهُمَا. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ، أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، فَقَالَ: ابْنُ أَبِزَى، قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبِزَى؟ قَالَ: مَوْلَى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ».

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ»: قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ: كُنْتُ آتِي ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ عَلَى سَرِيرِهِ، وَحَوْلَهُ قُرَيْشٌ، فَيَأْخُذُ بِيَدِي، فَيَجْلِسُنِي مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ، فَتَغَامِرُ بِي قُرَيْشٌ، فَفَطِنَ لَهُمْ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: كَذَا هَذَا الْعِلْمُ يَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا، وَيَجْلِسُ الْمَمْلُوكَ عَلَى الْأَسْرَةِ، وَأَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي «تَارِيخِ دِمَشَقَ»، وَكَذَا الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي «الْفَقِيهِ وَالْمُتَفَقِّهِ» قَالَا: قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الْحَرَبِيُّ: كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْقَصُ عُنُقَهُ دَاخِلًا فِي بُدْنِهِ، وَكَانَ مِنْكَبَاهُ خَارِجِينَ كَانَهُمَا زَجَانٍ، فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: يَا بُنَيَّ لَا تَكُونُ فِي قَوْمٍ إِلَّا كُنْتَ الْمَضْحُوكَ مِنْهُ، الْمَسْخُورَ بِهِ، فَعَلَيْكَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ يَرْفَعُكَ. قَالَ: فَطَلَبَ الْعِلْمَ، قَالَ: فَوَلِي قَضَاءَ مَكَّةَ عِشْرِينَ سَنَةً، قَالَ: فَكَانَ الْخَصْمُ إِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَرْعُدُ حَتَّى يَقُومَ. قَالَ: وَمَرَّتْ بِهِ امْرَأَةٌ يَوْمًا وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعْتِقْ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَقَالَتْ لَهُ: يَا ابْنَ أَخٍ وَأَيُّ رَقَبَةٍ لَكَ؟